في الأدب المقارن

أثر المجتمع

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إنما يقصد الأديب فيما ينشىء إلى التعبير عن شعوره وأفكاره لأنه يحس حافزاً يدفعه إلى ذلك التعبير ، ويشعر براحة وغبطة إذا ماطاوع ذلك الحافز ، بيد أنه يتأثر في كل مايحس ويفكر ويكتب ببيئته الجغرافية ووسطه الاجتماعي وجيله الذي يحيا فيه ، لاندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والاصالة في الابتكار عن التأثر بكل ذلك ، بل لانغالي إذا قلنا إن عبقرية الأديب ليست إلا مجموعة مؤلفة من تلك العوامل ، والأديب الذي يعتزل مجتمعه لايتأثر به سائر أدبه إلى الاضمحلال وأن يكون سطحيا ، وكلما كان الأدب صادقا حيا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق ، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة ، وإن لم يمنعه ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة

فالأديب يتأثر بالمجتمع تأثراً تلقائيا غير مقصود ولا محسوس أحيانا ، ثم هو يتأثر به تأثرا واعيا مقصودا ، وذلك حين يلجأ الأديب عمدا إلى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع ، وما يحمد منها وما يذم ، ومن يصادفهم ويخالطهم في المجتمع من افراد ذوي خلائق متباينة ، يلذ للأديب أحيانا عرض كل ذلك في أدبه كما تعرض الصور والدمى في المعارض والمتاحف ، ويغتبط اى اغتباط بقدرته على تصوير ماراعه من تلك الحقائق والسلائق على ماهي عليه ، وقد يزيد فيجلوها في مجلى الفكاهة والسخرية ، أو يزيد فيندد بما يرى من مساوىء ويدعو إلى الاصلاح ويوضح وسائله ، ويؤلف لنفسه مبادىء يرضاها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين وهلم جرا ، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد فحسب ، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعي إصلاحي ، ولا ريب أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون ، من التعبير الصحيح عن صادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها ، فاذا ماظهر بجانب ذلك غرض اجتماعي أصبح للأدب غرضان ، بيد أنهما لايتنافران بل يأتلفان في يد الأديب القدير أحسن ائتلاف ، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله ، أما في يد الداعية المتحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعه الأسلوب ، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الأدب إلى حيز العلم ، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية او السياسة أو غير ذلك ، أما الأدب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية ، ووظيفته الكبرى في بيان الشعور وما اتصل به من أفكار

وتدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنيه لاشك مجال للأدب رحيب ، ومسرح لفن الأديب خصيب ، ومهما تغيرت أحوال المجتمعات على تتابع الأجيال ، فإن طباع الانسان المركبة فيه واحدة لاتتغير ، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وادعاء وغرور ونفاق ، وولع بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدثة ، كل هاتيك أمور تتكرر ولا تتبدل ، وتبدو في شتى الأشكال والازياء وهي في الصميم سواء ، ومن ثم نرى صورلها في شتى آداب الامم على تباعد عصورها ومنازلها : فالمسيو جوردان المحدث النعمة الذي رسمه موليير متعثرا في أذيال ثروته عكاثرا بها في سداجة ، هو أحد « النوابين » المحدثي النعمة الذين اولع بتصويرهم كتاب الدرامة الانجليز في أواخر القرن الثامن عشر ، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذي صدع رأس عيسى بن هشام في المقامة المضيرية بتعداد محتويات بيته وأثاثها ومزاياها ؛ فالأديب الحاذق يفطن إلى الخطوط الرئيسية في الصورة الشخصية التي يبغي رسمها ؛ فاذا ماصورها لم تكن صورة فرد من الافراد ، بل جاءت صورة ضرب من الناس في شتى الأمم والعصور

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور في الأدبين العربي والانجليزي ، واختلط ادباهما بتاريخيهما اختلاطا شديدا ، ولا غرو فالأدب من بين الفنون أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطا ، وتبينت في ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابعة ، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية ، وقام فيهما من الآثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه ، بجانب الآثار التي قوامها نظر الأديب في ذات نفسه وبوحه بأشجانه واطرابه ؛ بيد أن الأدب الانجليزي كان أبعد في تناول الشؤون الاجتماعية مدى ، وكان أدباؤه أكثر شغلا بالدعوة إلى الاصلاح ، وإن لم يهملوا التعبير عن خوالجهم الفردية ، ولم يقصروا في تصوير شخصياتهم المستقلة

ترى طابع العصر الاليزابثي في أدب شكسبير ومعاصريه :

فهو عهد فتوح ومغامرات ، فامتلأت رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار والحماسة الوطنية وتاريخ انجلترا ، وهو عصر لم تبدد الثقافة بعد أوهام سواد أبنائه ، فمسرحياته تعج بذكر الشياطين والسحرة والأشباح والعرافة والتطير ، ولم تكن نفوس أبناء ذلك العصر قد رقت ولا أذواقهم قد صقلت ، ولذلك تكثر في رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء ؛ وكان عهد تعصب ديني ، ومن ثم يسخر أدباؤه من أبناء النحل الأخرى كاليهود ، ولم يكن الحكم الدستوري قد توطد بعد ، وما تزال للملك اليد الطولى والكلمة العليا في السياسة الداخلية والخارجية ، ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه في روايه هنري الرابع وغيرها نظرية سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة ، ويعدها اساس نظام الكون

ونرى أثر عهد الإصلاح الديني في انجلترا في أدب عهد المطهرين : إذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التي لا يطمئن إليها عادة المتشددون من المتدينين ، وانصرف الأدباء الكبيران اللذان ظهرا إذ ذاك - ملتون وبنيان - بالاهتمام بالشئون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعا وأسلوبا ؛ ونرى أثر عصر المجون الذي تلا ذلك في مسرحياته المملوءة بالسقاط ؛ حتى إذا ما أشرق العصر التالي وقد اطمأنت النظم الدستورية وانتشرت الثقافة والثروة في جمهور الشعب أوغل الأدب في تناول الشئون الاجتماعية ، ولم يقنع بالأشكال الموجودة أصلا ، فاتخذ لنفسه شكلا ادبيا هو اليق لتصوير المجتمع ونقده وهو القصة ؛ وفي قصة القرن الثامن عشر وفي شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من تأنق وتصنع ، وحرص على تعلم اللغات وممارسه بعض الفنون ، ويجري ذكر خروج الارستقراط للصيد بخيلهم وكلابهم ، ويبدو مع ذلك ما كان يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وإدمان للشراب وإفراط في الطعام وما كان يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء

اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع ، وقد أدت غرضها ذاك خير أداء ، وكيف لا تؤديه والقصة في يد الأديب الخصيف ليست إلا قطعة من المجتمع الحي المتحرك منقولة على القرطاس ؟ قطعة من المجتمع طوع بنان الاديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء ويبرز بها من الآراء ما يختار ، فلا غرو ازدادت القصة الاجتماعية رقيا ونيوعا في القرن التالي ، وازدياد المبادىء الديمقراطية انتشارا أعقب الثورة الفرنسية ، وانتشار التعليم العام ، وتعقبه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة ، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية ، ونزاع الرأسماليين والعمال ، ونهضة المرأة ورقي علوم الاجتماع والنفس والتربية ، وخاض الأدباء غمار كل هاتيك الحركات والتيارات المتضاربة ، ونقلوا في غضون قصصهم صورها تيك المعارك الفكرية والأحوال المادية ، وفي قصص مريديث ودكنز وبنلر وهكسلي وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصى ، ومن تلك القصص نستخرج صور تلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة

وطمت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية ، في القصة المعاصرة ، فأقطاب القصة والدرامة المعاصرون أمثال شو وهاردي ووالز وجالزورذي ، كلهم متأثرون بالكشوف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة ، والأحوال الاجتماعية الراهنة ، ولكل منهم مبادئه ودعواته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتركون ، لا على المذاهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى ، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذه المبادىء لا على مبادئ الفن والأدب ينقسمون شيعا ومدارس ، ويسرف بعض الكتاب كبرتراندرسل في التحمس للدعوة الاجتماعية وإطراح الأسلوب الأدبي ، حتى تخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب ، ولا تعد إلا في كتب العلم إن كانت لها قيمة هناك !

كان الشعر العربي في الجاهلية حقاً ديوان العرب كما دعوه : كانوا يقولونه في شرح أحوالهم الفردية ، من حب وذكر للديار ومناجاة للمطايا ، وفي شرح أمورهم الاجتماعية ، من التمدح بالقرى والتفاخر بالبلاء في الحرب والتوعد بالثأر وإباء الضيم ، يرسلون كل ذلك على السجية فيجيء رائعاً بصدقه معجباً برجولته ، ويصوغونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد ، فظل شعر ذلك العصر ممثلا صادقا له رغم عبث العابثين به ، بل لعله كان أهم مصادر تاريخ ذلك العهد حين دون تاريخه ، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يذكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها أبيات الشعر مستشهدين

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والنجاح في ظل الأمويين في غزليات ابن أبي ربيعة وجميل واضرابهما ، ومفاخرات جرير والفرزدق وأشياعهما ، ثم ظهر أثر الافراط في تلك الثروة والفراغ والاسراف في اجتناء لذات الحضارة ، في شعر بشار وأبي نواس وأمثالهما ، ثم كان العهد التالي بدء التدهور والانحطاط المادي والخلقي : فهوت مكانة المرأة إلى حضيض من القهر والازدراء والجهالة ، وفشت الرشوة والمحاباة والمصادرة بين الحكام ، وكثر

الفقر من جراء ذلك وادعاء الفقر والتسول والاحتيال باسم الدين والطب والأدب والعلم، وذاع الفساد وفاحش القول وهبتذل التندر

يبدو أثر كل هذا فى تنديد المعرى بالمرأة وسخر غيره من الشعراء منها، وتلك الأقاصيص التى اقتن الجاحظ والاصفهانى وابن دريد فى جمعها وتأليفها، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات ووجوب تشديد الحجاب عليهن، فكان ابن دريد مثلا يخترع الحكايات يفسر بها الأمثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها. وبدا أثر تلك الحال السالف شرحها أيضا فى مقامات بديع الزمان والحريرى، حيث لا يزال بطل المقامات ينتقل من تسول إلى احتيال إلى خديعة، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه فى أسفاره اذا ما هبط بلداً أن يتعرف إلى واليه أو قاضيه أو بعض ذوى الكلمة فيه، يتقى بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة، ويتحاشى غوائل الارهاق والمصادرة والسجن. ويقف كاتبا المقامات المذكورة صفحات طويلة على استعراض ضروب الشتائم والبذاء يتقاذفها أشخاص الأقصوصة. ويقول ابن الرومى واصفاً حال الموظفين والتجار وأضرابهم:

أترانى دون الآلى بلغوا الآ ... مال من شرطة ومن كتاب؟
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا ... س وإن كان حبلهم ذا اضطراب
وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى فى النفوس والأحباب

هذه لمحة خاطفة إلى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة فى الأدب العربى، إذ كان من المحال تقصى تلك الآثار الاجتماعية التى تنعكس فى الأدب، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه، وما يزال الناظر فى مخلفات الشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعهم على جديد. وفى نوادر أبى نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الأصبهانى دلائل متفرقة على شتى نواحى الحياة الاجتماعية فى عصورهم. واذا قرأنا فى مقامات البديع مثلا أن أبا الفتح اصطنع فيما اصطنع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرفة القراءة، قرأه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بألاعيب قردة، علمنا أن تلك الحرفة التى ما تزال مشاهدة فى بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان، كانت تمارس منذ تلك العهود. وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب إلى مقر الخلافة يبتغون الرزق تارة بالصيرفة إذ يقول الجاحظ إنه لايكاد يوجد ذو تجارة رابحة إلا وصاحب كيسه سندى؛ وتارة باضحاك العامة — شأن أبى الفتح الاسكندرى — بألاعيب الفيل، وذلك إذ يقول دعبل:

هذا السنيدى لا فضل ولا حسب ... يكلم الفيل تصعيداً وتصويباً

كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل، واضحة فى الأدب العربى شعره ونثره؛ بيد أن أغلبها قد جاء فى الأدب عفوا أو عرضا، ولم يقصد لذاته ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمدا لوصفه وبيانه، بله نقده وإصلاحه، فأكثر أدباء العربية بعد الاسلام وبعد استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم فى شغل، قد يرون من أموره ما لا يرضيهم، وقد تكون لهم آراء فى السياسة ومذاهب فى الدين لا ترضى اصحاب السلطان، ولكنهم كانوا فى أغلب الأحوال يكتمون مثل تلك الآراء والنظريات، وكيف يبوحون بنقداتهم وهم بين رجاء لنوال السلطان وإشفاق من غضبه؟ إن النقد الصريح الحر والنظر الاجتماعى الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه، إنما كان يجهر الأدباء بالنقد والمعارضة فى الجاهلية وصدر من الاسلام، وهما عهد الحرية واستقلال الفرد؛ فلما توطدت الملكية المطلقة خفتت أصوات الأدباء وقطعت السنتهم. وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويون رؤوسهم عبرة لسواهم من الشعراء وقد مدح سويف الشاعر بعض العلويين الثائرين فواده المنصور، وثار المتنبى فى صباه يبتغى إصلاح الأحوال المتفاقمة فزج به فى السجن.

فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها فى أمر، وانقلبت بالأمة العربية بذلك من النقيض إلى النقيض. كان العرب فى جاهليتهم مسرفين فى الاستقلال والفردية، فصاروا فى ظل الملكية مسرفين فى الخضوع والاستسلام، وفرضت تلك الملكيه على الأدباء أن يعيشوا عالة عليها وعلى المجتمع، لايشاركون الشعب آماله وأعماله، ولا يقودون أفكاره وحركاته، فلم يكن المجال متسعاً أمام الأديب العربى، كما كان متسعا امام الأديب الانجليزى، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوه إلى إصلاحه. فان هو فعل ذلك عرض نفسه للتهلكة ولم يعد المجتمع فتيلا. إنما يؤمل الاديب الانجليزى أن يفيد مجتمعه بآرائه، لانه يخاطب بآثاره الادبية الرأى العام فى بلاده؛ الذى هو فوق الحكومة يملى عليها إرادته؛ أما فى ظل الملكية المطلقة فى الدولة الاسلامية، فلم يك هناك رأى عام، وكان رأى الحكومة الاعلى

لذلك عاش أدباء العربية طالبى فضل، يمدحون الامير ويعيشون من عطاياه، وهى السبيل التى ألجئ إليها المتنبى بعد محنة سجنه، وعاش بها حياته على مضض بأكبأ مما هو به محسود، واستوزروا

للأمراء وكتبوا وعملوا لهم ، وطلبوا بذلك النجاح الشخصى لأنفسهم لا النفع الشامل لمجتمعهم . أما أدباء الانجليزية فقل منهم من عاش فى ركاب الملوك ومن فضلهم على هذا النحو ، وكان أكثرهم إما مثرين غانين عن العمل لكسب القوت متوفرين على فنهم وحده ، واما مساهمين فى الحياة العملية بجانب الحياة الفنية ، فكان منهم من ضربوا بسهم فى السياسة والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ومن أولئك فيلب سدنى وبكون ورالى وملتون وبنيان وأديسون وبيرون ، وكان أكثرهم فى صف الشعب وجانب الحرية

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الإنسانى قاطبة ، ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وكره التقاليد والاعراف السائدة ، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال فلتير وروسو اكتفوا بالعمل النظرى وتركوا التنفيذ لغيرهم ؛ أما معاصروهم ومن جاموا بعدهم من أدباء الانجليز ، فحاول بعضهم تنفيذ مبادئهم بأنفسهم ، ولهذا الغرض انتقل بركلى إلى أمريكا وشلى إلى أرلندة ، يريد كل منهما إنشاء مدينته الفاضلة ، وإن كانا قدمنيا بالفشل لضخامة المشروع . وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم فى أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر ، واستشهد بيرون فى حرب استقلال اليونان .

ولقد أبدى بعض أدباء العربية فى عهد نضج الحضارة والثقافة والأدب شغفاً بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقهم وظهر ذلك فى كتب الجاحظ ؛ على أنه كان يروى الأشياء على علاتها ويخلطها بفكاهاته ؛ وفى مقامات البديع ، ولم يكن أيضاً يزيد على التصوير المجرد ، فاذا ما صرح بسخطه على بعض الأحوال والأحكام والأنظمة ، فتصريحاً سريعاً فيه تسليم واقتناع بعدم جدوى محاولة الاصلاح وعدم إمكان أحسن مما كان . وظهر ذلك الميل أيضاً فى شعر ابن الرومى ، الذى صور كثيرا من الشخصيات الفكاهية ، على أنه كان يتناولها من ناحيته الفردية وينحى عادة على أعدائه الشخصيين ؛ وظهر نفس ذلك الميل إلى تتبع أحوال المجتمع فى شعر المعرى خاصة ، وذلك من الأبواب التى تفرد بها أو كاد بين أدباء العربية ، وسبق فى التصريح بها عصره ، وله فى ذلك أبيات رائعة ليست إلا خلاصة موجزة لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد فى العصور الحديثة ؛ ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية ، ونقمته على عدم تساوى توزيع الثروة ، وذلك قوله من لزومياته :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا حقها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرى أو أمير متوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعى والاصلاح الشعبى ، وإنما مجال ذلك النثر الذى هو أكثر شيوعا وأقرب إلى متناول القارئين ، والذى هو أرحب صدراً بالشرح والتفصيل والاسهاب ؛ والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار ، ولكن النثر العربى لم ينهض بهذا العبء ، ولم يزد أن خطا الخطوة الأولى فى هذا السبيل فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع ؛ وقد جاءت هذه الخطوة متأخرة . ولما جاء الجيل التالى لم تتبعها خطوة أخرى ، بل أعقبها تقهقر إلى الوراء ، فلم تتطور المقامة إلى قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده فى سبيل الاصلاح ، بل تحولت فى يد الحريرى وغيره إلى معارض للألفاظ المزركشة والألغاز المعماة والحيل الملفقة ، فقد كانت الأمة فى طريقها إلى الانحلال ، والأذهان فى انحدارها إلى الخمود ، والحكام يزدادون على مرافق الأمة وطأة ، والأدب يتقلص رويداً رويداً ، ويهجر لباب الحياة إلى قشور الألفاظ .

فالادبان العربى والانجليزى قد تأثرا فى مختلف العصور تأثرا كبيرا بأحوال مجتمعيهما ، وهو أمر لم يكن منه بد ، بيد أن الادب الانجليزى كان أكثر بالمجتمع تأثرا وأكثر فيه تأثيرا ، وأشد تشابكا وتفاعلا معه ، لما أحاط به من ظروف مساعدة ، مرجعها سيادة الحكم الديمقراطى وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأى العام ؛ أما الأدب العربى فلبلوغه أوج ازدهاره فى ظل الملكية المطلقة ، قد كاد يقتصر تأثره بالمجتمع وتأثيره فيه على ما جاء عرضا غير مقصود ، وما تم بحكم الظروف وطبائع الأشياء ، وكان تناول أدبائه لشؤون مجتمعهم رفيقا محدودا ، وفيما عدا ذلك كان كل منهم عاكفا على وصف خطراته وأشجانه وصبواته ، مولعا بذم أعدائه ومساجلة صحابته ، إلى غير ذلك من الشؤون الفردية

فتحى أبو النصور